عباس بيضون

# ميتافيزيق الثعلب

شعر

دار الساقي

# ميتافيزيق الثعلب

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- ب. ب. ب.
- الموت يأخذ مقاساتنا
- بطاقة لشخصين
- مرايا فرانكشتاين
- ألبوم الخسارة
- ساعة التخلي
- الشافيات
- صلاة لبداية الصقيع
- خريف البراءة

عباس بيضون

# ميتافيزيق الثعلب

إلى بانه، ابنتي

# المكتبة

كتب لم تفتح من سنين
في الحقيقة لم يقرأها أحد
حتّى الذين نسخوها خافوا من أن يفعلوا
قالوا إنّهم ينقلون أسراراً لا تجوز معرفتها
ولا طاقة على فهمها
الذين كتبوها خافوا منها
ورموها على قارعة الطريق
توجّسوا من أن تخنقهم في نومهم
لم يعرفوا كيف تصوّرت على الرقّ
من وضعها على الريشة
ومن حرّك بها أصابعهم
رصفوها خلف الزجاج
وأغلقوا عليها
قالوا الكلام يحيا مع الوقت
وعلينا أن ننتظر أجيالاً
بمجرّد فتحه سيبصق روحه
لكنّ أحداً لا يعلم كم تحاول الكتب فتح نفسها
ولا تجد أمامها
سوى الغبار لتمضغه
كم هي الأخرى أميّة
ولا تقرأ ما في داخلها
أميّة وعمياء ومقعدة
ولا تقدر على الحركة
يخطئ من يظنّ
أنّ المجلّدات الكبيرة
تمضي وقتها
في ألعاب ذهنيّة
أو أنّها مع الأيّام
تزداد فهماً لما تحويه
أنّها في نهايات الأزمنة
تغدو واضحة ومفسّرة
في نهايات الأزمنة

لن يبقى شيء منها
سيغدو الفراغ في وسطها
سيكون أيضاً سقفها
ستعلو وتطول
لكنّها لن تحكم العالم
سيبقى لها سحرها
بكلمة
تحوّل بوتاغاز المطبخ إلى مكتبة
لكنّها لا تستطيع
أن تبعد عنها
العناكب السّامّة
وتستمرّ، مع ذلك، في أكل الذباب
مع العمر تبيضّ أعينها
وتعضّ أكثر على أضراسها
تنتأ ويغدو لها حجم
وتروح الكلمات يأكل بعضها بعضاً
ما يبقى لن يكون قليلاً ويشكّل بنفسه كتباً
قصيرة بل قزمة
علب مصفوفة كأحكام
وربّما كلعنات، ربّما كأسماء أمراض قاتلة
يحدث أن نستيقظ
فنجد المجلّدات مقطوعة نصفين
أو نجدها كوماً من نشارة خشبيّة
سحبوا خيطانها وفرموها
بدون حنكة
لن يبقى فيها أسرار أكثر من ورقة خريف
لن يسقط منها مخطّط للعالم
إنّها تفور بنمال ترسم دوائر كاملة حولها
لقد فتحت نفسها
ابتلعت دفعة واحدة
الفراغ والذباب
لم يبقَ أمامها ما تأكله
سوى الجذور التي تجدها مخلوطة بالتراب
ربّما هكذا لن تنقل إلينا أمراضاً
ولن تخنقنا في نومنا

# عينا الكاتب

أقرأ في كتاب
ثمّة دائماً سردابٌ يؤدّي إلى كرسيّ
لا أجد من يحبسني عليها
مع ذلك أريح جسمي
فأقع فوراً في حفرة
لا أبالي، أريد أن أصل إلى الأعماق
ولا أعرف إن كان المعنى حقّاً حجراً
إن كان سقط حقّاً من عين الكاتب
أم لم يكن سوى سنٍّ بصقها
يمكنني بالطبع أن لا أضعها في فمي
أن لا ألتقطها بأصابعي
لكن، بدون انتباه، أدسّها في قلبي
المليء بقصاصات وخرق من شتّى الأنواع
أنتظر فقط أن يراني الكاتب
أن أقابل عينيه
اللتين تمطران كلّ لحظة أشواكاً
هناك سأجد قشوراً كثيرة سقطت منهما
لن أعثر على سهام مكسورة
ولا كشاتبين مَبْريّة
فقد انتهت مدّتها
ربّما احتاج الأمر إلى قتل خيط
أو إلى السقوط من أعلى جملة
لا شيء سوى الكرسيّ الذي أجدها وسط الركام
يحق لي أن أضع حذائي الذي فجأة
يصفر ويضيء كسيارة إسعاف
إنها لعبة مترادفات
الأرجح أنّني أجد نفسي على آخر كرسيّ
أجد عصافير مقتولة وكثيراً من العيدان
أجد سطوراً من المنكوبين
ورؤوساً سقطت عن السطر
سأقول إنّ السماء تركت لي هذا النقش
الغيلان مرّت أيضاً من هنا

واختفت في كرّاسات منضّدة
ذلك سيزيد في الأزرار
ويجعل لغة السماء أشدَّ إبهاماً
في لوح كتفكَ أنهوا الحسابات عن سبعين عاماً

# ملوك بيزنطة

هكذا تركت كتابين على المنضدة
قبل أن أتبعك
إلى غرفة النوم
رائحة جوافة من فكرة
داهمتني على الباب
حرير يخشّ في بدني
وقلبي الذي لم يتوقّف
عن أن ينقّط في جوفي
المرآة التي ردّت لي وجهي
ابتسمت لي
لكنّ الوجه الذي عاد
كان أصمَّ تقريباً
أصمّ ومطموساً
تلهّيت بالنظر إلى الأثاث الجديد
شاعراً بالأسف لشيخوختي
التي تتنزّه بدون لياقة
في هذه المنطقة المحرّمة
دخل معي الملك القصير
الذي أقرأ عنه
لقد توّج على ورق اللعب
بعد أن استقال لتوّه
من مهنة الساقي
ظلّ يزداد قصراً
من صفحة إلى صفحة
حتّى غدا كالإصبع
عندئذ زرعته في حذائي
الذي خلعته ورميت عليه
نظّارتي وجواربي
وطمرته بعدد آخر من الصفحات
لقد حبلت به امرأة أرمنيّة
وأمضى سنوات بين فنادق الدرجة الأولى
يتبعه جواسيس مستأجرون لخدمته

فيما كانت بيزنطة تزول
ومملكتها باقية فقط
على رقعة الشطرنج
ثمّة ملوك آخرون
لا يجدون عملاً
حتّى في ورق اللعب
زرعت ملكاً كالإصبع في حذائي
وأنا على ركبتيّ
مسحت وجهي على بطنكِ
وملأت راحتيّ من جلدكِ
فكرة صرّت في بدني كستائر المطبخ
وأخرى لها ملمس صحيفة يوميّة
لكنّني كنت تقريباً
ساقطاً في جوربي
نابتاً كالإصبع
جنب الملك القصير
حملت القسطنطينية
وفرشتها على السرير
كما هي مطبوعة في رأسي
بمساجد عادت أديرة
وسوّاقين عادوا ملوكاً
وحين رفعت ظهري العاري
كانت كلّها موشومة فوقه
مع أوشام أخرى
من العهد البرونزيّ
مع الستائر واللمباديرات وتذاكر القطار
وملصقات مهرجانات الشعر
والجلد
الذي قبل قليل
انسكب عليّ
هناك دائماً قسطنطينيّة على الطريق
لمن يشتاقون
إلى السير على أسوارها
ولمن تُوّجوا على بلادٍ لا يعرفونها
وممالك لم توجد على الإطلاق

ثمّة رقعة جلد
لا تكتفي منها أصابعنا
ولا نزال ننشقها
كالفكرة الأولى
التي انفلقت
وظلّ طنينها موصولاً
حين يتراءى لنا
أن نطرح شيخوختنا
على سرير جديد
أن نتعلّق برقبة شابّ
ونقوده إلى المصيدة
أن ننادي فيجاوبنا
حذاء من داخل كومة
سيكون البلاط في فندق رخيص
وفي غرف ندخلها خلسة
خوفاً من أن يضبطنا الخدم
الصوت الذي يصلنا من قرون
حمل معه هذه المرّة
شعر الملك العجوز المحلوق لتوّه
وسنسعى لنتخلّص منه
في المغسلة
سيكون حلاّق الملك
و
شاعر الملك
عظمتين في حسائي
ستعود القسطنطينية إلى الكتاب
وتبقى مع ذلك
في الهواء
حيث سيتسنّى لنا
أن نسحب أنفاساً منها
حين لا سلالم للهواء
ولا سلالم للوقت
لكن فقط نساء أرمنيّات
حبالى من رجال عثمانيّين
بملوك بيزنطة

# من ثقب إلى ثقب

منتصف الشهر ثقب
أصل إليه من ثقب آخر
أنظر إلى حيث كنت
فلا أرى إلّا العشب
أمضغ بدون قابليّة
صباحات ناشفة
وأيّاماً متساوية متثائبة في الظلّ
أتناول الحياة كسرة كسرة
وما يبقى أتركه للذكرى
المبعثرة خلفي
والّتي تتحوّل إلى آثار
وإلى عملات ممسوحة
أدخّن الوقت مخلوطاً بالهواء
وأزفره مع الكلمات
الّتي تنزل أعقاباً على الأرض
لو كان لي أن أدّخر أيّامي
أو أحفظها في مصرف
أن أبني هيكلاً من يوميّاتي
شخصاً من شمع أو خرق
أن أربّي منها شجرة
أو قرداً
... أو حتّى فزّاعة
لكنّ الغربان الّتي تنقضّ من علٍ
تحمل إلى المجهول
القشّ الّذي نسجتها منه
وتخلّص الخيوط والبراغي منها
يبقى زرّ واحد على صدر المانيكان
نصيبه من الحياة التي أمضاها
تحت الأضواء
أنّه وسام خدمة طويلة
لم يدرك إلى الآن
أنّها انتهت

فليس له جثّة نرميها في خندق
أو نغطّيها بمعطف عسكريّ
رآه الجميع وهو يبتسم لحذائه
حذاؤه يبتسم له أيضاً، يتبادلان اللاشيء
الّذي هو سعادة
من يوم إلى يوم
وتحتاج إلى جلد لمّاع وفكّ قويّ
يحدث أنّني أخبط قدمي في ثقب جديد
انتصف شيء ما
ونحن تماماً في وسطه
كمن يقطع شعرة بسيف
مرّ الشهر تحت آباطنا
ولم نره
ولم نفكّر في أن نؤخّره
قد أكون مانيكان شجرة
قد أكون مجرّد يوم إضافيّ
لا أعرف ماذا أضيف للشروق أو الغروب
ماذا أمنح للفجر
لا شيء أقطعه بقدمي
كمن يقطع شعرة بسيف
لا أتصدّق على المانيكان
إنّه يعرف من أين سرقت قبّعتي
كم خسرت في شهر
ولماذا أفشل في تقليده
إنّه يختارني من بين المجتمعين خلف الزجاج ويناديني
جنبي المرأة المقامرة
وقد جاءت تشتري حظاً
جنبي النمر الطاعن
وقد جاء يطلب أسناناً
جنبي الجنيّة الهوجاء
توزّع بطاقات لكلّ الأماسي
الجميع ينظرون إليه
خجلين من أن يبتسموا لأحذيتهم
الّتي اندعكت منذ لبسوها
ما زال الحذاء المثالي

سؤالهم الميتافيزيقي
مع أسئلة أخرى عن أشياء السقف
وعن المصابيح
أتنفّس الوقت وأزفره
بدون أن أنتبه
إلى أنّ في أصابعي
وفمي
وأذنيّ
القدرة ذاتها
على تبديده في الهواء
ثمّة حطام يتحوّل طحيناً
وطحين يغدو هباءً
ثمّة نسيان يغيّم فوق كلّ شيء
أيتّها السبعون تصلين وحدك
ليس خلفك عربات ولا أحمال
لا يحتاج النسيان إلى حقائب
إنّه يسأل فقط عن الحلّاق
ومزيل الرائحة
لا يأبه لكلّ الشعر الّذي يتساقط
ولا لسلسلة المفاتيح الّتي تخرج من حلقه
ولا حتّى لتلك الرائحة المتخيّلة
الّتي يفترض أنّها تنسم فيه
أكبر الحروب تخمد بلا آهة
فقط صفحة بيضاء
نملأها بضجيجنا الداخليّ
وخوفنا
لم أستطع أن أؤخّر الأعوام
ألوم نفسي لأنّي لم أحاول
لم أقدر على تجنّب الوقت
لا بدّ أنّ هناك طريقةً ما
حتّى اللاشيء يمكن حفظه وتخزينه
حتّى السراب تمكن تعبئته
وبيعه في قنانٍ
حتّى النسيان يمكن تحويلُه إلى طاقة
لا بدّ أنّ هناك طريقةً ما

لم تُكتشف بعد
سنقدر بمزيل الرّائحة
أن نمتصّ الزمن
سنقدر بساعة بسيطة
أن نغيّر الوقت
السبعون
يمكن أن أدّعي أنّي لست حيّاً ولا موجوداً
قد أجبرهم تماماً
فيضطرّون إلى إهمالي
ونسياني
وسط الحياة

# حرب اللاأحد

أحمل سقفاً معي
أجرّه من سماء إلى سماء
إنّها بلاد ككلّ البلاد
مع ذلك لا أجد حصيراً
أرقد فوقه
ولا حجراً
أريح رأسي عليه
أسند رأسي إلى الفضاء
ومع بداية الغروب
يبدأ ألم صامت
في مشاغلتها
فقرات ظهري
تستمرّ في اللمعان
وكذلك مفاصلي وأسناني
أضيف إليها بضع كلمات
وأنصب منها خيمة في الجوّ
هكذا نستعمر السماء بألمنا
بينما لا نجد كوخاً على الأرض
أرفع السقف فوق كلمة
فتستحيل بلدة
أنقله من كلمة نزوح إلى منفى إلى شتات
فأجدها جميعاً ماطرة
ألعب غالباً بالرعد والبرق
أفضّل منهما جبباً
لكنّ الأكيد أنّ رحّالة سبقوني
ذبحوا الرعد وجوّفوه
ذبحوا البرق وجعلوه يلمع في المفاصل والأسنان
إنّها ثريّات معلّقة
أصنع منها غرفاً
أقف فيها مع كثير من البرد والعطش
كثير من الفقر
أسقفها بكلمتين: لا ممرّ، لا مكان

ومع كلمة "لا أمل"
أبني خيمة من عظامي الكبيرة
أزوّدها بمكتبة
مليئة الرفوف باللاكتب
إنّها قرية ابتكرها اللاأحد
من لا أشجار ولا بيوت
لكن أيضاً
من معاناة فظيعة وهروب كبير
من صفر يبتلع الجموع
من معارك تستمرّ صامتة عمياء
من لا أمكنة ولا طرقات
حيث تحرق المساجد
وتعلّق النساء من فروع الشجر
وتُنتزع الحناجر بالملاعق
ويصيح النهب في البيوت والأسواق
ذئاب كبيرة آتية من الخلف
عادت تحبو كجراء وديعة
دم أسود
لم يملأ الصفحة
أوراق مجموعة من التاريخ
لا نجد نسختها الآن
الصيارفة غادروا قبل أن يتمّوا محصولهم
من الرؤوس
جماجم كثيرة ليست حقيقيّة
لا تجد من يجمعها
أو يقدّمها "عشاءً للرؤوس"[1]

[1] جاك بريفير

العاصفة تقتلع السقف
وثمّة محاربون لامرئيّون في العمق
شواهق تُدمّر بأيدٍ خفيّة
وكلّ ما يمكن رؤيته
طوابع بريد تتراشق
وأحياناً نرى
نسخة طازجة بحبر طريّ

المؤكّد أنّه من دموع الأطفال
أحمل سقفاً معي
وليست معي عاصفة ملائمة
لذا أجد نفسي خارج الخيمة
في السماء التي هي ميدان
وهي أيضاً مقبرة
ويمكن أن تكون صندوق بريد
السقف المشرّد معي
يريد كلباً حارساً
ويريد أن ينزل بسلام
على مرحاض في حديقة
لكنّ هذه الأحلام الرعويّة
ليست بدون ثمن
وثمن باهظ
كلّما ضؤل الحلم
احتاج إلى معدّل أكبر من الدّم
الدفع بالجثث
تنخفض قيمته باستمرار
الدفع بالأثاث القديم
قد يكون أعلى
مع ذلك فإنّ النجاة بسقف
تبقى مكسباً
وإن كان غير منظور
حرب اللامرئيّين تدور من سنين
وتغدو أكثر في لا مكان
ونحن نهرب منها
نغدو خفيّين
ولا نحتاج إلى أن نظهر في الظلام
اللاأحد وحده يظهر عن الجميع
اللاأحد هو الكتاب
"اللا" المتألّهة هي المجهول
والسقف الذي يسقط على الجميع

# شعب صغير بلا أرجلٍ وبقليل من الدماء

حشود تجوب الفلاة
في المقدّمة نباح
وغرابان مسرعان
تتخاطف الجوارح صبيانها وكلابها
وتعيدها فراخاً سوداء
يخرج الأهالي ويطردونها
عن أبواب القرى
كالذئاب
قليلون يتسلّلون ويبقون في الخلف
يختفون في رؤوس الأشجار
حيث تلاحقهم الأفاعي
يسقطون واحداً بعد الآخر
برصاص الصيّادين
في كتابهم الذي يحملونه في أعناقهم
ليكون معهم ساعة موتهم
كلمات تسعى كأرواح
وتحدّثهم في محنتهم
كلمات تقيتهم أيضاً
ويمكن نصبها كفِخاخ
أو إشعالها لإرهاب الأغصان
التي لا تتوقّف عن النموّ
الريح بلد
هناك من يقطنونها مستعينين بكتابهم
على إعادة تحريكها
حين تتوقّف
أو حين تغزوها
أعاصير آتية من جميع الجهات
البريّة أيضاً بلد
عندما يحلّ الغروب
الذي لا تصل إليه العربات
والذي يحدث أحياناً في الخلف
بعد أن يغادروا

لذا ينامون في ظلّ أحذيتهم
كالعصافير
هناك من يرحلون
بدون أن يحرّكوا أقدامهم
هم في الحقيقة بدونها
البلاد تخرج من حدودها
وتدور كالفلاة
وهم يدخلون ويخرجون
من المنافذ ذاتها
ويعبرون على خرائط أخرى
قبل أن يعثروا
على قبورهم
قد يكونون شعباً صغيراً
بلا أرجل
وبقليل من الدماء
أرواحه يخفيها
في صيوان الأذن
ويبادل بها
أصابع وسلاميّات
يحمل جبّانته وإلهه معه
ويعيد زرعهما
في أيّ مكان
لقد اغتسلوا بثلاث ثورات
وكانوا يخرجون
من كلّ منها
أكثر شفافية
في كلّ منها
يخسرون قدراً من عظامهم
أمطرت ثلاث مرّات
وكلّ مرّة بلون
وفي الأخير اختفت دماؤهم
واختفوا هم معها
في الأخير ثورة بيضاء
وبدون أظافر
كالكفن

يتصدّق بها على النباتيّين
المستقبل
الرّجل الذي عُلّق من ربطة عنقه
يستطيع أن يستوي
في العلبة
لقد كانت السماء بعيدة
ولم يستطع أن يبلغ السقف
الذي في الأسفل
يحاول أن يدير قلبه
بإبهامه
لكنّه يفلت المفتاح
الفلول ترحل هكذا
في أكياس
لكنّ رأساً منزوعاً
لا يقطر نقطة واحدة
لقد وُجد هكذا على الركام
ثمّة أصابع ناقصة من يد الشهيد
سحلية مقتولة
إلى جنبها
الحجارة تتهامس
لم تجد طعاماً منذ البارحة
الرجل الذي رموه بينها
بلا عينين
وعلى الأغلب بلا جثّة
لم تشرب الأرض شيئاً منذ أيّام

# قلب صغير تحت الظفر

أحزّز التفّاحة
وأترك السكين فيها
ثمّة بزرة وقعت من عيني
مبتلّة
وملفوفة
برمش طويل
تركث جرحاً بمقدار قشّة
ربّما هي قلب نبتة
ربّما هي فم فراشة
لكنّ البحث في أشياءَ كهذه
مؤلمٌ كوجع الأسنان
خيط في السريرة
يظلّ ملتهباً أثناء النوم
قلبٌ صغير تحت الظفر
يضيء فجأةً في الظلام
تلتفّ البذور المشعّة وسط التفّاحة
إنّها عاقر
والسكّين لن يحييها
لقد صنعت من أصابعي
قَدَراً
وها أنا أؤلّفها من جديد
على شكل حدوة
والقشور تهطل من عينيّ

# قدم من شوك

أطبع قدماً من شوك
خفّاً من شوك
في خطواتي
أخرج عصاً من ساقي
أحمل تحت ركبتي كتاباً غير مقروء
يثقل عاماً بعد عام
تحت كتفيّ ملاكان أجيران
يكوّمان أعمالي
التي تتطاير
وهما يلهثان خلفها
اسمي يزول عن البطاقات التي يجمعانها
وتأكل الريح سطورها
ثمّة مدوّنات فارغة
كانت في الأصل ذكريات
مع ذلك أطبع خلفي
قدماً من شوك
خفّاً من شوك
عندما تصرّ أسناني
أحسب أنها تعضّ على ذكرى هاربة
لكنّني رغم ذلك
ما أزال أحلم بالعود الأبدي
لشعري المتساقط
وأسناني
عظمة في داخلي تحترق
وتدخّن كثيراً
حتّى تعمي عن قراءة الأسلاك والأشرطة
التي تحفظ أسراري
تبقى لي وثيقة وحيدة
قدم من شوك
خفّ من شوك

# ماذا قال الثلج للمسافر الوحيد

سبعة عشر عاماً
بدأت على الثلج
أو ربّما بعده
رؤوس الطرق التي انقطعت
تنبح أمامنا
قبل أن تعود وتلتفّ علينا
رتل الغيوم المسافرة كأكياس النقود
تلقي علينا في كلّ منعطف
قلوب وزّال مطبوعة
اللامرئيّ يجلس بيننا
ويثبتنا في جلودنا
اللامرئي الذي هو غرف فنادق
ومرايا مشعورة
وشجارات
وصور أيدٍ مقبوضة
لا يزال يملأ الصفحة الأولى
من ثلج الأسطورة
التي خرج منها أرنب ضالّ
لخبط وراءه
سطوراً كاملة
أكان هذا هو الثمن الوحيد
لليالي الحبّ واليأس
وصيحات النشوة
ثمّة أشخاص في خلفيّة المشهد
تحوّلوا إلى بصمات
سبعة عشر عاماً
لا سعر لها سوى هذه القصيدة
التي لها أيضاً أذنان كبيرتان
كي لا تسمع
والتي تحتاج إلى سطر مفقود
لتنشر سقفها
أريد أن أعود

كعنكبوت
إلى بيت الغابة
أن أسمع ماذا قال الثلج
للمسافر الوحيد
ماذا أعطاه "فالنتين" في العلبة
التي سرقتها
فجأة
حدأةٌ طائرة
سبعة عشر عاماً
لم تفهم السرّ
الذي ذات ظهيرة
على خشب المكتب
صنعَتْه أربع شفاهٍ متصالبة
وعلى سرير المقابلة الأولى
ساق مدلّاة
أشخاص أيديهم مربوطة إلى أعناقهم
كنّا تركناهم صغاراً على الثلج
يخرجون من الصفحة
وينظرون إلى آثارهم المبقّعة
التي بقيت مع ذلك
مفهومة للمستقبل
كان يمكن بحساب بسيط
أن نرتّب أكواخنا
أن نترك دمى
بعمر السبعة عشر عاماً
تسهر على غيابنا
أن نترك أشجاراً بذات العمر
في طولنا
كان يمكن لحكاية صغيرة
أن تنتقل بين الغرف الثلاث
لكن كلّما تقدّمنا
ثمّة رؤيا خلفنا
وقصّة مفقودة على الباب
سبعة عشر عاماً
ملأى بجسور محطمة

و شهور خاوية
بصراخ من فوق الجسر
وأسرّة محمولة على الأكتاف
وميتات ناقصة
وقبور على الطريق
كلّ ذلك لم يصنع جزيرة
ولا حتّى سقفاً
ليس أكثر من الخلسة
استراق الزيارة
واستراق الظلام
لكن لا يمكن لتلك الحكاية
إلاّ أن تنبت سيقاناً جديدة
وهي تتجرجر على الطريق
حيث تتكسّر ثانية
ومن حطامها
ثمّه حيوان بأربعين ساقاً
ينفخ في كلّ اتجاه
السرّ الذي ذات ظهيرة
صنعته أربع شفاه متصالبة
وساق مدلّاة

# إلى أمّي

لونك القمحيّ لا أتذّكره
إنّه من قماش الذاكرة
كتّان يمشي في الدم
قشرة تكاد تنفتّ باليد
تكاد تتساقط على الأصابع
لكنّها كلمّا رقّت
أصبحت أكثر قساوة
أكثر نعومة في سنّ الثمانين
لا أتذكّر
لا أجد لحظة لأنسلخ عن جلدك
أشعر به في وجهي
حين ألمسه
أشياء لا أعرف عددها
كلمات أيضاً
تتحسّسني مثله
ماذا تقولين يا أمّي
تشرّمت أذنك من ثقل الحلق عليها
وتركت الحلقة الساقطة ثقباً في أنفك
من السابعة عشتِ
بأذن مشقوقة وأنف مثقوب
لربمّا كان هكذا حملكِ
لربمّا سقطتُ أنا من بطنكِ
واحداً من ندوبكِ
وهذا الجلد الذي يغلّفني
إنه ذاكرتكِ تشدّ عليّ
لمستك التي انطبقت على بشرتي
ثمّة أفكار دخيلة لا أميّزها من أفكاري
مشاعر دخيلة لا أميّزها من أحاسيسي
آخرون، جاؤوا عن طريقك، يسهرون في جلدي
ألوان وروائح ونكهات ورغبات
لا تزال تواصل حياتها فيّ

2
أكلمّك بضغينة

2 "يجب أن نكلم الموتى بغلظة"، جول سوبرفييل.

لطالما طردتِ من حولي
لطالما أردتِني خالياً لك
أحسبني نسيتكِ
لكنّي لا أفهم كيف أجدك أمامي
في حجر على الطريق
كيف تحملك إليّ نسمة خريف
كيف بصوت رجل
نعم رجل مجهول
أسمعك في احلامي
أكلّمك بضغينة
لقد أشبهتك
بهذا الوجه المعار لم أجسر على أن أتقدّم
بهذا الوجه المعار
أحد سواك لم يقبلني
ما زلت أستمر في أن أشبهك
ستكون لي شيخوختك وسأقضيها مرعوباً مثلك
أتوقّع كلّ لحظة
طائراً مخيفاً على شبّاكي
سأجد كلّ شهر غضوناً إضافيّة
إنّها رسائلك تتّصل بعد الغياب
إنني أترقّع بكِ، وبعد قليل،
أصبح وسادتك
بعد قليل نقرأ معاً ذات الأدعية
ونحمل ذات المفتاح الثقيل
وذات النظّارتين السميكتين
بعد قليل يغدو لي صوتك المجروح
وشكايتك
وتصلني روحك في سلّة
خوفكِ الذي كان مسنوناً
ومع السنين تقطّر كراهيةً
الموت الذي كان دائماً أمامكِ
لكنّه يصطاد كلّ مرّة واحداً
من حولكِ

لقد انتهى هذا التعب
لكنّ حدادكِ لم ينتهِ
لن تكوني، مع ذلك، سنونوة البيت
لن يكون لك جناحاها المظلمان
ولا قلبها الطريّ
لن تعُدّينا، كلّ يوم، عند الصباح
خوفكِ المسنون حجرك
والشعرة الملتهبة التي تصدّين بها عن نفسكِ
لكن أسنانك الصفر الكبيرة
وخصلات شيبكِ المنزوعة
لم تخفني بقدر كلامك
عن وجوه مفتوتة باليد
وأشخاصٍ بعرض إصبعين
وأموات صارت محاجرهم مكاحل
إذ تحت لسانك
الحفرة التي وُلدت منها
أكلّمك بضغينة
لقد طردتِ عنّي
أصدقائي وأقاربي
وأنا كرهتهم لأجلك
لكنّك بحدادكِ الطويل
الذي، مع ذلك، لم يمنحك تاجاً
استدعيت طيور الأسف
إلى سفينتي

# الحياة تبدأ بعدنا

أنا وأمّي لم نتكلم معاً إلّا قليلاً
بل لا أتذكّر أنّنا تبادلنا جملة واحدة
ماذا لدى المرء ليقوله لوالديه
ذلك قيل من زمن، بل تأكد دون أن نقوله
هو وجبال من الأشياء، أكثر معانينا رسوخاً، وُجدت قبلنا
وجدناها في انتظارنا
تسلمناها بدون أن نشعر، دخلت فينا قبل أن نفهم
لم يكن لها معادل، لم تقابلها كلمات
شربناها ولم نعرف، كبرنا معها ولم نسأل
كالهواء تنفّسناها غافلين، كالدورة الدموية تحدث
بدون أن نحسّ
لعلنّا تكلمنا معاً، لكن عن أيّ شيء
لا بدّ أنّه لم يكن كلاماً بلا موضوع، لا بدّ أنّنا نسيناه معه
بالطبع لا نتذّكره، عرفناه قبل أن يتمّ
في الواقع لم يحدث على الإطلاق. لقد بقي بيننا وبين أنفسنا
لم يحدث لنا، حدث فينا
ماذا لدى المرء ليقول لوالديه
كلّ شيء مختوم جاهز، كلّ شيء لا يحتاج إلى تفسير
يمكننا أن نفكّر أن الأقربين لا يتلامسون
الأقربين لا يكلّم بعضهم بعضاً، لا يحتاجون إلى أن يتعارفوا
يتجاورون، الجوار مدعاة لعدم اللمس
مدعاة لعدم الحوار
أن نتنفّس في المكان نفسه، وسط الأشياء نفسها
ذلك يعني أنّ
عمراً قبل عمرنا انقضى بينها
أنّنا أكملنا كلّ شيء قبل أن يبدأ
وصلنا جاهزين وليس أمامنا إلّا الرحيل
وداعاً أيّتها الصداقات
الحياة تبدأ بعدنا

# نخلتان في العراء

الماء ينام في القناة
تحت البثور والبقع
الماء مريض في القناة
أجرب وهزيل
الغيوم، من فوق، ترقّعه
والسماء تبلّطه في القاع
تلك هي الصورة
التي التُقطت من سنين
ولا تزال في عينه
ستّون عاماً مرّت في لحظة
إنّها الظلّ البنّي الراكد
الذي توقّف وسط الشارع
وهي أيضاً الهواء
الذي تيبّس في الزقاق
الليل الذي تحطّم
إلى فئران زاحفة
النهار الذي تسقط ثريّاه
وتتناثر كأوراق الشجر
ستّون عاماً، تداعى السقف
لكنّ العائلة بقيت تحت الغطاء
أعادوا نصب الأعمدة الأثريّة
وناموا تحتها
لم يخرجوا من الكهف
اثنان فقط وصلا إلى فم المغارة
ستّون عاماً ليست عمر النخلة
ولا عمر الحجارة
إنها عمر العظام التي أكّومها على المقعد
عمر الكلام الذي بدأ يتقوّس أيضاً
الصمت الذي يلتوي داخل الصخرة
ويتليّف داخل القلب
إذ زادت الجلبة وزادت القذارة
من أجل نخلتين في العراء

من أجل هذا الشعار العائلي
الذي تفسّخ في الحائط
وخرجت منه شتيمة محليّة
تساقطت قروشها على أرض الغرف
جرّت القطّة الحسك من كوم النفايات
ووقفت تحرسه
لا نعرف إن كانت حيّة بعد
لم يعد في الكومة ما يلمع
إنّها الآن مجموعة متحجّرات
لكنّ الحذاء الذي رشقتها به
وأنا ابن تسع
ظلّ عالقاً فيها
حتّى حين وجدنا صغاراً تبلعط فيه
كلّمتها بخوف
كما يحدث حين تفاجئنا روحٌ جديدة
لكنّها ظلّت تصوصي حتّى نفقت
واحداً بعد الآخر
بقي في الحذاء روح واحدة
التهمها كلب الجيران
الكومة الآن مليئة تراباً وزجاجاً
الأشخاص تسنّنت وجوههم
حتّى صاروا شبيهين بأسلحتهم
شبيهين بكلابهم آكلة النفوس
البحر ينقشر عن المدينة
ينفض يديه منها وينزعها من كفّيه القصيرين
ويتقهقر بصفحته المليئة بالشارات
بابتسامات الموتى وأسنانهم الصغيرة
مع ذلك يبقى في عين المدينة
التي تطبق فكّها الحديدي
على حفائرها وغرقاها

# غلطة تمشي على أربع

جذعي ينحني
هكذا يقف أمام خطئه
تحيّة للجسارة التي، فجأة، فارقته
ينثني جسمي إلى وسطه
لقد طواه الخطأ
وجعله نصفين
مع ذلك لا يقع على وجهه
في وسع هفوة أن تغدو، ببساطة، ميزاناً
في وسع غلطة بالكاد مرئيّة
أن تمشي على أربع
سترتي تتعلّق على كتفي
عمودي الفقريّ مزرّر تماماً
ثمّة ما يفكّني
ما يفتّح عراي
ليس شيئاً، قد يكون فكرة
تتألّم وحدها
ولم تصعد بعد إلى السطح
رقبتي عميقة
حلقات عدّة ومفصّلات
في داخلها ذلك الحسّ الّذي يمشي كدودة
حسّ جوفيّ لا يلبث أن يصل صوته
إنّه ألم قيد الاكتمال،
ألمٌ يتململ فحسب
أفكّر أنّ رقبتي مليئة بالأضراس
التي تمضغ ببطء ذلك الحيوان الباطني
ثمّة ما يتصوّب كالسهم إلى الكتف
إنّها الدودة تتحرّك
باطن العمود، باطن العنق
شيء يشبه الألم لكنّه لا يصبح البتّة ألماً
شيء كالخوف يكظم أنفاسه
ويلفّ بدون صوت
جارّاً نفسه في ذراعي

أعمّر رأسي
على عظام مستديرة
أرى نفسي مشنوقاً من سترتي
رأسي منصوب على قاعدته
شيء كالحظ السيّئ يتسلّق عليّ
إنها ساعة ينجرّ فيها الألم
من فقرة إلى فقرة
كزيت ساخن
أو دم فاسد
كنيّة طائشة
تمسكني من خناقي

# تسي تسي

أسمع تشويشاً خافتاً
خلف الزجاج
ملايين تسي تسي تتكرّر في الجوّ
ربّما كنت الوحيد
الذي يصغي في هذه الساعة
كلّ ما حولي حيّ مستيقظ
وليس لي سوى هذا المربّع
تحت الشبّاك
العالم يحدّث نفسه
طوال الليل
الهواء يتكلّم في الشجرة
التي دفنّا تحتها هرّنا نينو
من خمس سنوات
يتمزّق كلّ مرّة
بصفير مسنون
ويكاد يختنق بين الأوراق
العالم يواصل حديثه اللامبالي
الهواء يواصل إنذاراته
ربّما كنت الوحيد الذي يسمع
وهذا أخافني أكثر
ليس سواي في هذا الليل
يشعر بمرور القدر
الذي ينعطف كمركبة فضائية
ويطلق مليارات تسي تسي
بينما الهواء ينتحب في الباركنغ
ويتجرّح بين الأغصان
ربّما أنا وحدي الذي يشهد العالم
يدير ظهره
ويغلق السماء
ويسمع فقط صرير النهاية
تسي تسي يتكرّر بالمليارات

# إنّه فقط حلم

ليس ليلاً ولا نهاراً
ليس مدينة
إنّه فقط حلم
ليكن صباحاً مترسّباً من الليل
ليكن نهاراً ماصلاً على ليل مبقّع
ليكن حبراً قانياً بحواشٍ زرقاء
إنّه فقط حلم
لا يمرّ أحد
ولا يهرّ كلب
لكنّ الحيطان تراقب
والمكان موبوء بالأرصاد والعيون
إنّه فقط حلم
لا أستطيع أن أخرج
أنا مطلوب ومطارد
ولا أعرف أين أنا
إنّه فقط حلم
لا أوراق ولا نقود معي
أمشي حافياً
الجدران تصفُر من حولي
في وسع نظرة واحدة أن تمحقني
شعاع واحد يمكنه أن يخترقني
لكنّ هذا فقط حلم
أنتظر أن يسقطوا عليّ
من السلالم والنوافذ
خوفي يتكامل وينضج في جوفي
فيما الحيطان تبقى تتهامس
الخلاء يبقى صافراً
و مرقّطاً بالعيون
الصمت يزداد كثافة
بحيث لا يستطيع سيف أن يقطعه
إنّه فقط حلم

# المتحوّلون

يدخلون مسلّحين
آكلو الشوك
آكلو الظربان والقنافذ
المتحوّلون
خرجوا لتوّهم من الحريق
الذي ترك أوشام نباتات
على جلودهم
عقود من الأنياب
مدلّاة على صدورهم
جاؤوا من الخنادق
حيث أعيد بناؤهم
من أكياس الرّمل
ورُكّبت أقفاص
على شاشات عيونهم
دفنوا بناتهم في الحياة
وأكلوا بقايا التمر
واختاروا آلهتهم من قطّاع الطرق
وحين ضلّوا السبيل
صرخوا "حيّرتنا أيّها المسخ"
رتّبوا أضلاعهم مقاعد
وأخرجوا الابن الشهيد
من أمتعتهم
وجلسوا عند رأسه
يدخّنون في وجهه
ويسقونه من أيديهم

# العاصفة

العاصفة الفارغة
لخفّتها تركض مسرعة
وراء شيء لم يعد أمامها
لقد سبقته بأميال
وما زالت تعدو في أثره
في وسطها الخالي تتكوّن عين
لا يستطيع أحد أن يكسرها
يتكوّن فمٌ خالٍ من الأسنان
يمتدّ عواؤه على المسافات
يتكوّن قلبٌ من طين
سقطت منه أرزةٌ للتوّ
أمّا العميان ومقطوعو الأرجل
الذّين تطبعهم على الصخور
فيطوّقون المدينة طوال الليل
ويختفون في البرك والأنفاق
والظلال
بعد هبوبها بساعات

# خبر سيّئ

موسيقى تحزّ قلبي
من اليمين إلى الشمال
من الشمال إلى اليمين
لحن يلعب نفسه
على أسنان منشار
أو على أطراف المسامير
صمت يجهش فجأة
أو يتكسّر
وتتألّف من شظاياه
جملة طويلة
هناك غابة من رموز
تتكلّم في نومي
لغة غير مستعملة
أتنفّسها فحسب
بدون حاجة إلى قواميس
هناك من يدفع في أحشائي
رأساً ضخماً
لمّته المستعارة
تنقشر عنه
مشتبكة بأمعائي
ناشرة في ظلمتي
سرّاً
يخرج من أذني كالدخان
في جوفي كتاب
يقرأ نفسه
ويصل أنينه إلى روحي
كتاب يكتب نفسه
وأسمع صريره
في قلبي
في قلبي أيضاً
قدم ضاغطة
قد لا تكون سوى خبرٍ سيّئ

لم يصل بعد

# حول الكتاب

## نبذة عن الكتاب

«أنا وأمّي لم نتكلّم سويّة إلا قليلاً
بل لا أتذكّر أننا تبادلنا جملة واحدة
ماذا لدى المرء ليقوله لوالديه
ذلك قيل من زمن، بل تأكّد دون أن نقوله
هو وجبال من الأشياء، أكثر معانينا رسوخاً، وجدت قبلنا
وجدناها في انتظارنا
تسلّمناها بدون أن نشعر، دخلت فينا قبل أن نفهم
لم يكن لها معادل، لم تقابلها كلمات...»

## قيل في الكتاب

«لا يزال صاحب «الموت يأخذ مقاساتنا» و «أشقاء ندمنا» قادراً على إدهاشنا..» جريدة الأخبار

## نبذة عن المؤلف

عباس بيضون كاتب وشاعر لبناني.

## كتب أخرى للمؤلف

في الشعر: «ب.ب.ب»، «الموت يأخذ مقاساتنا»، «صلاة لبداية الصقيع»، «بطاقة لشخصين»، في الرواية: «مرايا فرانكشتاين»، «ألبوم الخسارة»، «ساعة التخلّي»، «الشافيات»، «خريف البراءة»